التخييل الذاتي في رواية "يا صاحبي السجن" لأيمن العتوم

Autofiction in Ayman Otoom novel's "ya sahibay alsijn"

أ/زراني صفية *

تاريخ الإرسال: 2022/01/23	تاريخ القبول: 2022/04/30	تاريخ النشر:2022/11/10

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى فهم جنس أدبي جديد ظهر حديثا على الساحة الأدبية، انبثق من جنسين أدبيين: السيرة الذاتية والرواية ووُسم بـ"التخييل الذاتي"، وهذا عن طريق التمييز بين الرواية والتخييل الذاتي، ثم نحاول استخلاص خصائص هذا النوع من خلال دراسة تطبيقية على رواية "يا صاحبي السجن" التي تصنف ضمن هذا اللون من الكتابة الشخصية، بالفصل بين البعد المرجعي والبعد التخييلي، وكيف استخدم الأول لإيهام القارئ بواقعية وصدق الأحداث.

الكلمات المفتاحية:التخييل الذاتي، السيرة الذاتية، السارد،الكاتب، أيمن العتوم..

Abstract:

This study seeks to try to understand a new literary genre that appeared recently on the literary scene, which emerged from two literary genres: Autobiography and the novel, and was labeled: “Autofiction” and this by distinguishing between the novel and Autofiction, and then analyzing the novel, my prison owners, which are classified within this The type of personal writing, by separating the reference dimension from the imaginary dimension, and how the first is used to delude the reader with the realism and sincerity of events.

*جامعة البليدة 02. zeranisafia@gmail.com

***Key words**:* Autofiction, Autobiography, Narrator, Writer, Ayman Otoom

*** *** ***

المؤلف المرسل: صفية زراني zeranisafia@gmail.com

مقدمة:

احتلت الرواية مكانة مميزة في حقل الدراسات الأدبية والنقدية لحيازتها على جمهور قرائي كبير، فهي القريبة من الذات القارئة والمنبثقة من الواقع، فغدت بنت الحياة التي يرسمها الكاتب.

تعرّف بأنها عبارة عن مجموع سير متقاطعة مع بعضها على رقعة يحركها الخيال، إنها تتميز باللامحدودية فهي شاسعة الطول وواسعة الفضاء الزمكاني وغيرهما من عناصر البناء السردي، فوصفت بالجنس الأدبي غير الخاضع لقوانين تحكمه، فعندما تنطلق في السرد تكون سيدة نفسها، لتضيف أي مادة وتستقبل أي فن لعالمها.

إن زئبقية الرواية تسمح لها بامتصاص أجناس أخرى ثم تلبسها خصائصها، وكان للسيرة الذاتية نصيب من هذا التداخل، وقد خلق المزج بين الرواية والسيرة الذاتية جنسا أدبيا حديثا هو "التخييل الذاتي"، وقد حثنا هذا الأخير على طرح تساؤلين الأول : كيف ينفصل التخييل الذاتي عن الرواية والسيرة الذاتية أما الثاني : كيف يتجلى هذا الجنس في رواية "يا صاحبي السجن"؟

1. ما بين السيرة الذاتية والتخييل الذاتي:

إن الحديث عن الذات ليس بالأمر الجديد في الفلك الأدبي، والاهتمام بها عزز من تطوير طرق الكتابة عنها، كما نوّع من سبل الالتفات إليها، والسيرة الذاتية إحدى هذه الطرق، وتعدُّ هذه الأخيرة من أهم الأشكال السردية الذاتية، وهي ليست الأولى من هذا النوع إنما تشكلت كنتيجة التراكمات التي خلفتها بعض الفنون الأدبية أمثال :السيرة الشعبية، أدب الرحلة، الأخبار، اليوميات، المذكرات، ولعل غياب الاهتمام بالخصائص

الفنية لكل فن جعله لا يرقى إلى الجنس الأدبي، فمعظم الفنون السابقة كانت تنقل شفاهة لذلك لم تعزز في الميادين الأدبية، وقد اهتم بالسيرة الذاتية الناقد فيليب لوجون Philip Lejeune في كتابه الموسوم بـ:"السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي" حيث وضع شروطا مفصلية بينها وبين الفنون الأدبية شبيهتها، وقد عرّفها بأنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة"[1]، أي أنها ترتكز على السرد بإعادة تاريخ صاحبها في الزمن الحاضر وهذا ما يفسر حدود المصطلح :" السيرة "و"الذاتية"، فالسيرة هي سجل حياة إنسان ما والذاتية تحيل إلى التوجه نحو الذات والتمركز حولها فيغلب عليها ضمير المتكلم، ليتوحد المؤلف/الكاتب والراوي في شخص واحد يكون محور أحداث حقيقية عايشها المؤلف وهذه الأخيرة تميزها عن الرواية التي تتحرى الخيال، ولتحقيق هذا الحد وجب توفر بعض الشروط، حددها فيليب لوجون في أربعة أصناف:

1. شكل اللغة:
   أ. حكي
   ب. نثري
2. الموضوع المطروق: حياة فردية وتاريخ شخصية معينة
3. وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه على شخصية واقعية) والسارد.
4. وضعية السارد :
   أ. تطابق السارد والشخصية الرئيسية .
   ب. منظور استعادي للحكي"[2]

إذا توفرت هذه الشروط في النشاط السردي، سميت بالسيرة الذاتية، وهي نقطة الفصل مع الفنون الأدبية التي تندرج ضمن الأدب الشخصي ولعل مجال التشابه بينهم يكمن في الصبغة الواحدة المتمثلة في السجل الحياتي للكتاب، و"الترجمة الذاتية الفنية،

هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق...وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا، عن تاريخه الشخصي، على نحو موجز، حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة"[3] وهذا الأسلوب الفني والجمالي يجعلها تخلو من التقريرية المحضة، وهذا ما يميزها عن قصص التاريخ التي تقدم الحقائق والوقائع بدون شاعرية.

ومن أشكال الكتابة عن الذات نجد التخييل الذاتي(autofiction)، الذي يعتبر وليد جنسين أدبين السيرة الذاتية والرواية؛ من الأول يستمد دعائمه المرجعية فالذات هي البداية وهي الختام، وفي الوقت نفسه يستمد من الثاني_وبكل توسع_عناصره السردية البنائية كالأحداث والفضاء المكاني والشخصيات محافظا على مبدأ التوازن بينهما فلا نلحظ بروز أحدهما عن الآخر[4]، ويعد أيضا جنسا أدبيا يراوغ القارئ خلال العملية السردية، حين يتحدث الكاتب عن نفسه ويروي جزءا من حياته ويستحضر شخصيات أخرى تشاركه في بناء أحداث هذا السرد تحت عباءة الخيال الواسعة التي تدخل القارئ في متاهة البحث عن الحقيقة ؛ هذه الحيرة والمزج بين الواقع والخيال، بين الحقيقة والوهم تخلق هالة من الغموض حول الذات الساردة مما يعزز استقطاب الجمهور القرائي لهذا النوع من الكتابات، وتشد القارئ وتُعمل عقله في محاولة البحث بين طيات الأحداث عن الجزء الأكثر صدقا وأيهما تمثل الحياة الحقيقة للكاتب.

ظهر التخييل الذاتي مع الكاتب سيرج دوبروفيسكي (Serge Doubrovsky) من خلال كتابه "الأبناء" 1977م حين قام بسد ثغرة عند فيليب لوجون في كتابة ميثاق السيرة الذاتية حيث أرسل له "لقد أردت، برغبة عميقة، أن أملأ الفراغ الذي خلفه تحليلكم، وهي رغبة زامنت فجأة نصكم النقدي مع ما أنا بصدد كتابته"[5] ويقصد كتابه الأبناء وقد حدد له جملة من الشروط متمثلة في:

—— الإشارات المرجعية : التي تضم الهوية الأعلامية، اسم المؤلف الحقيقي، والأسماء الحقيقة للفاعلين النصيين،مع الحرص على السرد الحقيقي والواقعي من حياة الكاتب.

—— إثبات السمات الروائية: ويكون في الصفحة الأولى مع التحديد التجنيسي (رواية) إضافة إلى تبني إستراتيجية الرواية في السرد.

—— الأساليب السردية المبتكرة: التي تشتغل على النص مع تجنب التكوين الخطي عن طريق الانتقاء،التكثيف..[6]

لقد انشطر التخييل الذاتي عن السيرة الأدبية، وتخلى عن الميثاق السيرذاتي ليؤسس ميثاقه الخاص، ميثاقا تذوب فيه ذات الكاتب لتلائم الوضع الروائي وتنصهر مع الشخصيات الأخرى والأحداث المترتبة عنهم جميعا، فتنتقل الذات التي كانت في عالم متوازٍ مع عالم الشخصيات إلى عالم واحد.

2. التخييل الذاتي في رواية ياصاحبي السجن :

يقدم لنا أيمن العتوم روايته «يا صاحبي السجن» من خلف قضبان السجن الذي اختطف منه الحرية لمدة تقارب السنتين، إنه يروي أحداث الرواية بلسان المجرب الذي ذاق مرارة الاعتقال في سبيل قصيدة تغنى بها عن وطن، مستخدما فيها ضمير المتكلم ومقحما معلوماته الشخصية في سرده وموزعا رقعة مدن وطنه على بياض الورق مما يوقع القارئ في متاهة وحيرة؛ هل الأحداث المذكورة هنا حدثت فعلا؟ وهل هي تجربة حقيقة لحياة كاتبه؟

1.2. البعد المرجعي :

إن استدعاء مرجع الذات الساردة في رواية التخييل الذاتي يشكل حوارية بين جنس الرواية والسيرة الذاتية، كما يشيد بواقعية الأحداث والشخصيات والأماكن، وفي رواية يا صاحبي السجن تروى الأحداث في البداية بضمير المفرد المتكلم ولا تتم الإشارة إلى أي إسم على الإطلاق إلى أن يظهر اسم الكاتب "أيمن العتوم" صراحة ولأول مرة على الرواية في الصفحة الخامسة والأربعين :

——"اسمك؟

——أيمن العتوم

——هذا الشعر الذي قرأت لك عناوين بعض قصائده...هل أنت كاتبه؟

——نعم وبكل فخر "[7].

وهنا يحدث تفاجئ وارتباك لدى القارئ إذ نجد تطابقا بين الكاتب والسارد والشخصية، إذ يدرك أنه يقرأ لسيرة الكاتب نفسه مما يجعله يتمسك بالنص أكثر، ويتشوق لمعرف المزيد عن كاتبه وما عاشه في فترة من فترات حياته والتي قد تكون هي المرحلة الفاصلة التي غيرت توجهه ومسار حياته، والجدير بالذكر هو أن الكاتب/العتوم وهو يحرر نصه كان مبتغاه الأول أن يحدث الدهشة ويكسر توقع القارئ حين يذكر اسمه على صفحات روايته، ليحول جسده من كائن حي إلى نسخة ورقية تنتقل عبر عالمين، عالم الحقيقة وعالم الخيال.

ثم يستمر ذكر اسم الكاتب خلال صفحات الرواية فيقول: "ويدنو مني قائلا: أيمن علي..فأجبته : نعم.."[8] ومرة أخرى بقوله:"إدانة الظنين أيمن علي حسين العتوم بالتهمة المسندة إليه، والحكم عليه بالحبس مدة سنة لأحكام المادة 195 من قانون العقوبات رقم16 لسنة 1960."[9] هذا التدرج في ذكر الاسم الكامل للكاتب/العتوم يذّكر القارئ ويؤكد له بأن ما يقرأه هو سيرة ذاتية وحياة حقيقة كما أن الأحداث المنجزة هنا وقعت فعلا في السجن وهي تعبر عن تجربة لصيقة بحياة الكاتب.

يستنطق الكاتب نفسه ويبحث عن ذاته فيقول:حاولت أن أعيد التعريف بنفسي في تلك اللحظة...من أنا؟ سألت القابع في أعماقي، وقلت: أنا معتقل سياسي، في قسم المخابرات، في زنزانة انفرادية، في منتصف الليل، على رقعة وطني الحبيب...لم يعجبني هذا التعريف، فأعدته على النحو الآتي: أنا شاعر يحب وطنه وهذا الحب أوصله إلى هنا!! أعجبني هذا التعريف أكثر من سابقه، فكررته لأقنع نفسي به.."[10] إنه يصنع للقارئ هوية سردية طازجة يمررها بالحوار المونولوجي لترسخ في وعيه، هذه الذات التي تصارع نفسها تمارس نرجسية طاغية وتسعى للبطولة وللمثل العليا، هذه الذات المثالية التي يسعى نحوها الكاتب، تعرف في روايات وقصص الخيال حين تكون الشخصية البطلة هي رمز الخير والقدوة الحسنة التي تتأثر بها باقي الشخصيات، ثم تنتصر في النهاية وهذا السيناريو يظهر في قوله:"نعم سأخرج من هنا دون أن يكون للدولة علي منة من عفو خاص أو عام! أخرج وقد قضيت مدة محكوميتي كاملة دون أن يكون لأحد فضل علي إلا الله الذي أراد لي أن أخوض هذه التجربة الحية، ثم أبي الذي وف جدارا منيعا.."[11]

من زاوية أخرى يحرص الكاتب على ذكر الأماكن ليوهم بالحقيقة أكثر فيجول بالقارئ عبر تراب الأردن: "تركنا إربد وراءنا، ووصلنا جرش، ولاحت لي قريتي سوف من بعيد"[12]، وهنا أشار إلى مكان إقامته لمزيد من تحري الواقية ثم يستحضر أمكان أخرى بقوله:"تركنا جرش وراءنا، وسرنا باتجاه عمّان"[13] ويحرص على تدوين الوقائع بتوقيتها:"هذا هو السبت 1996/09/07، والساعة تشير إلى العاشرة صباحا، مشت السيارة في طريقها، كل الأماكن في إربد التي عشت فيها مألوفة بالنسبة لي"[14] ثم يستنطق الواقع ليكون شاهدا على فترة سجنه "إنهم سجناء أحداث الخبز عام 1996م وهم المجموعة التي اعتقلت إثر قيام الجنوب بهبته وانتفاضته ضد قرار رفع أسعار الخبز التي أقّرتها حكومة (عبد الكريم الكباريتي) رئيس الوزراء آنذاك"[15] ويشير إلى أحداث سياسية أخرى وكأنه يكتب مذكرات عن مجتمعه الذي يستشهد به أمام القارئ "واتهم حزب البعث العربي الاشتراكي بتحريض الناس للخروج في مظاهرات ضد قرار رفع أسعار الخبز، وطالبت جماعة الإخوان المسلمين آنذاك في بيان لها الحكومة بالتراجع عن هذا القرار."[16] كما يظهر الكاتب معلوماته الشخصية:" وأخرج لأبدأ الفصل الأخير الذي يسبق تخرجي في قسم الهندسة المدنية من جامعة العلوم والتكنولوجيا"[17] هذا التكثيف البيوغرافي يصنع من الرواية رقعة منتمية إلى عالم حقيقي،العالم المتواجد في الكاتب نفسه.

2.2. البعد التخييلي والتطابق مع المرجع:

بظهور اسم الذات الساردة/الشخصية في حالتها المدنية الحقيقة المنتمية إلى الكاتب ؛ يُفتح باب التأويل لدى القارئ، ويبدأ التنقيب حول حياة الكاتب ليسكت فضول احتمالية وقوع الأحداث، ومن خلال الغلاف قام الكاتب/العتوم بتجنيس الأثر إلى رواية ليمرر للقارئ بأن حكمها حكم الآثار الأدبية الخيالية، ما على الشخصيات من حرج ولو تطابق اسم الكاتب مع السارد والشخصية، وهذا النوع من التصريح بالتخييل أشار إليه فيليب لوجون من خلال قوله:"يمكننا أن نطرح الميثاق الروائي الذي سيكون له، هو أيضا، مظهران: أولهما تطبيق جلي لعدم التطابق (إذ لا يحمل المؤلف والشخصية نفس الاسم)، والثاني تصريح بالتخييل (العنوان الفرعي رواية.."[18]، وعليه فإن أيمن العتوم شكل حياة

جديدة عبر اللغة مشابهة للواقع، غير أن التجنيس رواية يسقط منها عامل الصدق، فيقول : "جاء أحد أفراد أمن السّجن صباح يوم الإثنين 1996/10/21، لينادي عليّ:

—— وين أيمن العتوم!!

—— هَيْني هُونْ!!

—— نائب المدير بدّيّاك..

—— ليش!!

—— هات أغراضكْ ولْحقْني..وبعدين بتعرف ليش.."[19]،

يستخدم الكاتب/السارد لهجته الأردنية لإضافة الطابع الواقعي فتستمر لعبة تظليل القارئ حول ما يقصده الكاتب هل هذه فعلا حياته داخل السجن أم هي من صنع خياله!

عبر فصول الرواية كان أيمن العتوم، الشخصية/السارد يلعب دور المراقب والمتلقي للأحداث في بعض المشاهد ويدعو شخصيات أخرى للتحدث "قال لي يوسف يومها، عندما نطق القاضي بالحكم في البداية: إعدام، ثم سكت لحظة، ثم أتبعها بالمؤبد، ما بين الحكمين سارت الحياة في دورتها إلى النهاية"[20]، حيث ينقل بعض القصص لشخصيات أخرى من خلال صوته إلا أنها شاركت في نسج السرد وتكثيفه، فالذات في رواية التخييل الذاتي تتساوى مع قيمة الذوات الأخرى، بمعنى أن ذات الكاتب ما هي إلا شخصية تعادل الشخصيات الأخرى، ويعتبر حدا يفصلها عن السيرة الذاتية لأن السير الذاتية تتطلب من الذات أن تكن محور العملية السردية.

عندما عرض أيمن العتوم جزءا من حياته وسرب بعضا من معلوماته الشخصية كانت وسيلة فعالة في إغراء القارئ، حتى أنه أضاف في الصفحة مائة وتسعين صورته مرسومة بقلم الرصاص ويخاطب نفسه بأبيات شعرية لمزيد من الإيهام بالواقعية، إلا أن الشخصيات المذكورة في الرواية قد لا تتصل بالواقع، فلم يذكر سوى أسماء الأعلام مثل "ليث، عكرمة،ناهض، شادي، زكرياء وغيرهم، أما أفراد عائلته فأشار إليهم باسم القرابة فقط كأمي، إخوتي،ابن عمي..وهذا يحجب الشخصيات الأخرى عن التورط في الأحداث، و"هو ما يمكن توصيفه بالتخييل الذاتي العام،حيث يتم مزج الحياة الحقيقية بالمتخيل، فلا المسرود حقيقي كما ينبغي أن تكون الحقيقة في السيرة الذاتية، ولا هو خيالي صرف كما

ينبغي أن تكن الوقائع في الرواية"[21]، ونظرا إلى زمن الحكي فإن رواية يا صاحبي السجن وردت في صيغة حاضر الحكي، ولم تكن هناك إعادة لحياة سابقة كما هو الشأن في صياغة السيرة الذاتية التي تعتمد على الاسترجاع والتذكر، فنجد أن الكاتب ينأى عن الاعتراف بحياته رغم حديثه الكثير عن نفسه، ونرجسيته المغمورة داخل الرواية ولو أنه بدا في البداية يعترف اعترافا محتشما بها حين أورد إشارات في النص تؤكد أنه يقول الحقيقة؛ بذكر معلوماته الشخصية، ومكان إقامته، ووضع صورته مرسومة بين طيات الرواية، وذكر مقاطع من شعره موجودة فعلا على دواوين منشورة ليكون بكل هذا مشاركا في الأحداث باسمه المباشر، وهذا سبيل ليموه القارئ في عالم يحكمه الخيال لأن الأحداث والشخصيات متخيلة وغير حقيقية.

3. خاتمة:

لقد أعاد التخييل الذاتي الكاتب إلى الواجهة وأعاد بعث المؤلف بعد نومه أو حتى موته عند أصحاب المفهوم البنيوي ومنح المتلقي حصته في السؤال والتأويل والبحث عن الحقيقة، كما صهر الكاتب والسارد والشخصية في ذات واحدة لتتحدث عن حياتها بنفسها، وتكون هذه الذات في السيرة الذاتية غاية أما في التخييل الذاتي فهي وسيلة تنهض بها كل العملية السردية، ورواية يا صاحبي السجن هي أشبه برحلة عبرت عدة فصول، إنها رحلة البحث عن الذات، لكن بطريقة صعبة ومؤلمة، ليخرج من طور الذات إلى تحقيق الذوات فيصبح الكل واحد.

4. الهوامش:

[1] -فيليب لوجون، السيرة الذاتية : الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي،المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، ص 22.

[2]- المرجع السابق، ص 23.

[3]- يحي ابراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث،دار إحياء التراث العربي، لبنان_بيروت،1973 ص 10.

[4]-ينظر، عبد الله شطاح، نرجسية بلا ضفاف : التخييل الذاتي في أدب واسيني الأعرج، كنوز الحكمة، الأبيار-الجزائر،ط1، 2012، ص7.

[5]المرجع السابق ، ص8 .

[6]- ينظر، المرجع السابق، ص19.

[7] - أيمن العتوم، يا صاحبي السجن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط2، 2013،ص 45.

[8]- الرواية، ص 66.

[9]-الرواية ،ص 132.

[10]- الرواية ،ص 23/22.

[11]- الرواية ، ص 336

[12]-الرواية، ص 31.

[13]- الرواية ص 32.

[14]- الرواية، ص 30.

[15]- الراواية، ص95.

[16] - الرواية، ص96.

[17]الرواية ص 100.

[18] - فيليب لوجون، السيرة الذاتية : الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، ص40.

[19]- الرواية، ص 158.

[20] -الرواية، ص 126

[21] - عبد الله شطاح،نرجسية بلا ضفاف: التخييل الذاتي في أدب واسيني الأعرج، ص13.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊